خطبة صلاة الجمعة 25/ 12/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(علم المناسبات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:204].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمر:18].

وقال الله تعالى لسيِّدنا موسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13].

وفي الآيات الثَّلاث لم يقل الله تعالى: اسمع، أو اسمعوا، أو يسمعون؛ ولكن قال: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾، ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

والاستماع: الانتباه، وحضور العقل والقلب في السمع.

قال وَهْب بن مُنَبِّه: (من أدب الاستماع سكونُ الجوارح، وغضَّ البصر، والإصغاء بالسَّمع، وحضور العقل، والعزمُ على العمل)، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى.

وقال سفيان بن عينية: (أوَّل العلم الاستماع، ثمَّ الفهم، ثمَّ الحفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النَّشر).

عنوان الخطبة: **علم المناسبات**.

أيها الإخوة:

حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الكريم وتعليمه والعمل بما فيه، ولا يزال العلماء يغدون ويروحون على دراسته واكتشاف لآليه، ولايشبعون من درسه وتأمل ما فيه، ولا تنقضي عجائبه وأسراره ومعانيه.

وقد عد الإمام السيوطي في إتقانه ثمانين علماً من علوم القرآن وتكلم شيئاً عن كل منها.

ومن علوم القرآن الكريم علم يسمّ علم المناسبات أو علم تناسب الآي والسور، فما الحكمة من جعل هذه الآية وراء هذه الآية، ولمَ جعلت هذه السورة إلى جنب هذه السورة، وما الرابط بين مطلع السورة وخاتمتها، وما الرابط بين خاتمة هذه السورة ومطلع التي تليها.

هذه الأسئلة يجيب عليها علم المناسبات.

فهو علم جامع لمناسبات السور والآيات وبيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة في ذلك. وهو علم شريف قال فيه الإمام الرازي في تفسيره: (وأكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط).

وقد ألف في علم المناسبات عدد من علمائنا كتباً، ككتاب نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي، وتناسق الدرر في تناسب السور للإمام السيوطي وغيرهما.

فعلم المناسبات: علم يعتني ببيان ارتباط آي القرآن وسوره بعضِها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني.

فعلى سبيل المثال: كثيراً ما يأتي في القرآن ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة، وفي هذا مناسبة تضاد إذ بضدها تتمايز الأشياء.

ففي سورة الحجر قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 42 - 50].

ذكر العذاب والنعيم، والغاوين والمتقين، والمغفرة والعقاب.

والتضاد نوع من أنواع المناسبات.

وفي القرآن الكريم جرت عادة أنه إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون باعثاً على العمل ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليُعْلَم عظمُ الآمر والناهي وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: 90، 92] فنهى سبحانه عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ووعد من التزم الأمر بالفلاح وأوعد من خالفه بالعداوة والبغضاء، وبين لهم أن الآمر الله والمبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تناسب بليغ.

وهكذا أيها الإخوة تجدون آيات القرآن يأخذ بعضها بيد بعض ويمسك طرف السورة بطرف السورة الآخرى لتكون معاً حبلاً متيناً وصراطاً مستقيماً لَا تزِيغ بِهِ الْأَهْوَاء وَلَا تلْتَبِس فِيهِ الألسن وَلَا تشبع مِنْهُ الْعلمَاء وَلَا يخلق عَن كثرة الرد وَلَا تنْقَضِي عجائبه.

هذا، وللمناسبات في القرآن الكريم أنواع:

- **منها مناسبة الآية للآية التي بعدها**: وقد مرت أمثلة على ذلك.

- ومنها: مناسبة السورة للسورة التي بعدها:

خذ مثلا سورة الكوثر جاءت كالمقابلة لسورة الماعون التي قبلها، فقد وصف الله في سورة الماعون المنافق بأربعة أمور: البخل وترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة.

فذكر في الكوثر في مقابلة البخل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي الخير الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة: ﴿فصل﴾ أي دم عليها وفي مقابلة الرياء: ﴿لربك﴾ أي لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون: ﴿وانحر﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي.

وجاءت جملة سورة والضحى مشابهة لجملة سورة الانشراح؛ لأن فيهما تعداد نعم الله تعالى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم، مع تطمينه وحثه على العمل والشكر، وقال في الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى﴾ وأضاف في الانشراح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ففي كل هذه الأمثلة تظهر مناسبة السورة للسورة التي بعدها.

– ومنها: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها:

فانظر إلى سورة المؤمنون، جعل الله فاتحتها ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وأورد في خاتمتها ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة!

وانظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته وقوله: ﴿فلن أكون ظهيرا للمجرمين﴾ وخروجه من وطنه وختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيراً للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكة ووعده بالعود إليها لقوله: في أول السورة ﴿إنا رادوه إليك﴾ وفي خاتمتها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

وبدأ سورة "ص" بالذكر ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1] وختمها به في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 87، 88].

وفي مطلع سورة "ن": ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2] وفي خاتمتها: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51].

فكل هذه مناسبات بين فاتحة السورة وخاتمتها.

ومنها: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها:

قال بعض العلماء: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى.

فختم الله سورة الإسراء بقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111] وافتتح الكهف بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].

واختتم سورة الواقعة بـ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 96] وافتتح السورة التي تليها سورة الحديد بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: 1].

وطلب المسلمون في سورة الفاتحة من ربهم الهداية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] وأجابهم في أول البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

فهذه ونحوها مناسبات بين فاتحة السورةوخاتمة ماقبلها

ومنها: مناسبة افتتاح السورة لافتتاح السورة التي تليها:

فافتتح القرآن سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف التي تليها بالتحميد؛ لأن عادة التسبيح أن يأتي أولاً ويتبعه الحمد (فسبح بحمد ربك) (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

وجاءت السور الحواميم متتابعة، والمعوذتين متتالية، والمسبحات متقاربة.

وجاءت فاتحة سورة يونس ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] والسورة التي تليها هود فاتحتها ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1] والسورة التي تليها يوسف ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1] والسورة التي تليها الرعد ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: 1] وهكذا تتناسب فواتح السور في اتساق عجيب.

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من الحديث عن علم المناسبات وهو يشير إلى إعجاز هذا الكتاب وعظمته، فاقرؤوا القرآن وادرسوه وافهموا آياته واحضروا مجالس تفسيره، واعملوا بما فيه وعلموه أبناءكم واحفظوا منه ما استطعتم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ تَعَالَى، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**» [المعجم الكبير].

والحمد لله رب العالمين